الزمن في شعر المتنبي

الدكتور أحمد عبدالحميد إسماعيل *

يمثل الزمن في شعر المتنبي الطرف الآخر في حوار داخلي عميق ، تتحرك جدلياته النفسية خلال مدى عقلي مؤثر ، فتنسحب على إبداع الدلالة اللغوية في البناء الشعري ، كما تنسحب على طبيعة المتنبي في إبداعه الفكري .

وإذا كان إبداع الدلالة اللغوية منهجاً أثيراً في فن المتنبي ، يتجاوز مرحلة الرصد المجرد راقياً إلى عالم التصوير الفني ، فإنه يخضع لرؤية المتنبي الشفيفة ، التي تنساب في كلمات ، وتتراسل في تراكيب وصور ، وتوقع المعنى المرهف من ضمير الخبرة والثقافة على نسق شعري ، "وأنت لا تجد لأبي الطيب قصيدة تخلو من أبيات تختار ، ومعان تستفاد ، وألفاظ تروق وتعذب ، وإبداع يدل على الفطنة والذكاء ، وتصرف لا يصدر إلا عن غزارة واقتدار" (١) .

وإن هذا البحث يحاول تقصي فكرة الزمن في بنائها اللغوي ، ومدى وقعها الجمالي وأثرها في ذلك البناء ، وتوقيع المتنبي بمفهومه للزمن على إيقاعه الشعري الجميل ، "وإننا

(١) القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (٢٩٠ : ٣٦٦هـ) : الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ص ٥٤ ؛ تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم ، وعلي محمد البجاوي .- بيروت ، لبنان منشورات المكتبة العصرية .

* ماجستير في الأدب الحديث ١٩٩٤م .
- دكتوراه في الأدب الأندلسي بمرتبة الشرف الأولى ١٩٩٦م .
- يعمل الآن أستاذ الأدب العربي بجامعة القاهرة - فرع الفيوم - كلية دار العلوم .

- كما يقول إميل ستايجر نعد العمل جميلاً ، أو كاملاً من الناحية الفنية ، حين يوجد فيه إيقاع شامل" [١] .

ولعل اقتدار المتنبي على تحقيق ذلك الإيقاع الشامل ، هو السر الدافع إلى تناغم كثير من الشعراء والنقاد والفلاسفة ، مع مسار المتنبي الشعري ، وكأن شخصية المتنبي هي الطاقة الملهمة ، التي تحرك في ضمير هؤلاء رغبة مبدعة ، تحاول استشراف قمة للشعر، تقترب من التي حازها المتنبي ، الذي " جدد الشعر العربي ، ولو أنه ، ربما جمده عند هذا الشكل إلى الأبد" [٢] ، والحق أنه لم يجمده كما قال المستشرق الإسباني إميليو غرسيه غومث ، فإنه يقصد بذلك بناء نموذج شعري خالد ، يختطه المتنبي متفرداً في مسيرة الشعر العربي .

وعالم الحوار الداخلي للمتنبي ، استلهم من خصائص الحوار وجدلياته بعداً من أبعاد المحايدة في رؤيته للزمن ، مما يضيف إلى عنصر الإيقاع الشامل عنصر الموضوعية والتحرر من سيطرة الذات ، ومع اتساق هذين العنصرين ، يضيء المتنبي مفهومه للزمن وفق منطق عقلي ونفسي ، قد يبيح له مواجهة الزمن أو مصاحبته أو الانقياد له ، وبين هذه الثلاثة هذا الإنسان الشاعر الذي استطاع أن "يملأ الدنيا ويشغل الناس" [٣] وهذا التردد العالي الذي يحفزه دائماً على الصراع والمواجهة في صور تعد بناء لا نواة لشعر ملحمي عربي ، يبدو فيه الحزن من الزمن ثمرة من ثمار التأمل الإنساني ، وليس نتيجة من نتائج اليأس والقنوط ، ومن بين تلك الثلاثة أيضاً ، هذا الزمن الذي تفرد في فكر المتنبي كياناً عبقرياً، يحفزه إلى ألوان من الرؤى المتفردة للحياة والناس والأشياء .

---

(١) "الزمن والخيال الشعري" لإميل ستايجر ، ضمن كتاب : حاضر النقد الأدبي ، ص ١٧٣ ؛ ترجمة وتقديم وتعليق : الدكتور محمود الربيعي .- القاهرة : دار غريب للطباعة والنشر ، ١٩٩٨م .

(٢) إميليو غرسيه غومث : مع شعراء الأندلس والمتنبي ، ص ٤٥ ، تعريب : الدكتور الطاهر أحمد مكي .- ط٤ .- القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٥م .

(٣) محمود محمد شاكر: المتنبي ، ص١٨١ .- القاهرة : مطبعة المدني ، ١٩٨٧م، والمقولة لابن رشيق في كتابه العمدة.

إن الكتابة عن الزمن في شعر المتنبي ، هي كتابة عن كلمات زمانية ، كما أنها رؤية خاصة لدلالتها في سياقها الشعري ، وترابطها في نسق فكري ، حاول البحث استشفافها عبر قراءة متأنية ، تسري في عروق تلك الكلمات ، لتصور علاقتها الحميمة بالمتنبي ، حينما تلهمه اللحظات ، وتهيئ مزاجه المتفرد للإبداع المتميز في دلالة الزمن وتصوره ، "وإنما نحن عبيد اللحظات ، لا نملكها ، ولا نستطيع تصريفها ولا ادعاءها ولا ردها عنا حين تقبل علينا ، وهي تقبل علينا بشيئ كثير لا نحصيه ، ولما تقبل به آثار لا تحصى في هيئة مزاجنا للفهم والحكم والتأثير ، وما أحق فكرة اللحظات هذه بشيئ من العناية" (١) .

وتحيلنا فكرة اللحظات في قراءة الدكتور طه حسين للمتنبي ، إلى أن العمل الإبداعي أسير زمن حي له توجه ورؤية ، وربما هو القدر بين المطلق والمقيد ، ينشئ علاقة موتورة في زمن لا يختاره الإنسان كما لا يختار الإنسان نفسه ، علاقة بين الإنسانية وضميرها الجمعي عن طريق شاعر كالمتنبي أو غيره من الشعراء ، حملة أسرار الكلمة وأمانتها ، لا يدرون أين تضع الكلمة أوزارها ، ولكنهم يسرون في ضمير الزمن كأسرار يكتمها ليل الحياة إلى حينها ، يقول المتنبي وقد فطن إلى رسالة اللغة والفن :

وكنت إذا يممت أرضاً بعيـدة سريت ، فكنت السر والليل كاتمه(٢)

يجرد المتنبي شخصه الإنساني في سر مجرد ، ليندلع في ضمير الليل المشخص ، إمعاناً في تقرير وحدة شفيفة حبيبة بين المادة والأفكار المجردة ، ويلازم بين الارتحال إلى المجهول والمصير المظلم ، ولكنه يدرك ماهية سر الكلمة والإنسان ومدى تفاعلهما مع عناصر الوجود ، ويوظف الترديد الموسيقي" كنت - يممت - سريت - فكنت " بتوقيع هذا

(١) الدكتور طه حسين : مع المتنبي .- ط١٣ .- القاهرة : دار المعارف ، ص٣٨٠ .

(٢) شرح ديوان أبي الطيب المتنبي ، لأبي العلاء المعري (٣٦٣ : ٤٤٩هـ) ، معجز أحمد : تحقيق ودراسة : الدكتور عبد المجيد دياب .- ط٢ .- القاهرة : دار المعارف ، ١٩٩٢م - ج٣ / ص٢٦ .

الصوت المغمغم على عروض الطويل ؛ محاكاة لوقع الفكر الإنساني ، وحركته الدائبة في مجاهل الحياة ، ولعل المتنبي يتناص عكسياً مع بيت النابغة الشهير في إعتاب المنذر :

وإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع[1]

فالنابغة مطارد بليل مخيف قادم لا محالة ، والمتنبي يتجرد كالسر في ضمير الليل الآمن دون رهبة أو خوف ، هنا تتمايز دلالة التأثير الديني في تصور المتنبي للزمن ، فالخوف من الإنسان يتوازى مع الخوف من تعاقب شطري الزمن الطبيعي في بيت النابغة ، ومسار الخوف يسلم إلى الموت المجهول أو العدم في فكر الجاهلية .

أما المتنبي ، فإنه يرى الزمن كائناً مخلوقاً ، مطرد الحركة مبهم الهيئة ، تتوازن ماهيته مع شخصية كل إنسان ، وفق منظومة الحياة وحكمة الخالق سبحانه في تصنيف الجنس البشري ، ثم في منحه الروح التواقة إلى الارتقاء فوق آلام البدن ، حينئذ ، يصعد الإنسان فوق مرتبة الزمن ، يقول المتنبي في مصر حينما بلغه أن قوماً نعوه في مجلس سيف الدولة سنة ٣٤٨هـ :

أريد من زمني ذا أن يُبَلغنـي ما ليس يبلغه في نفسه الزمـن
لا تلقَ دهرك إلا غير مكترث ما دام يصحب فيه روحك البدن[2]

وليس من تناقض بين الإرادة من الزمن ولقائه في غير اكتراث ؛ لأنه الزمن البشري الذي جمع فيه المتنبي بجيل من الناس ، ويتحرك هذا الزمن عبر قوة دفع بشرية ذاتية ، قد يكون مجازاً الجمع الإنساني ، ولكنه ذلك الجمع المتحرك في وقت محدد ، يعيشه المتنبي فيتفاعل معه ويصوره ، حينما تتلاطم الرغبات الإنسانية فيطاردها الناس ، وتتحكم النسبية العقلية في جدارة الهدف المطارد من عدمه ، فيقدم البعض ويحجم آخرون ، يقول المتنبي :

---

(١) ديوان النابغة الذبياني .- بيروت ، لبنان : المؤسسة العربية للطبع والنشر ، ص٨١ .

(٢) معجز أحمد :٤/١١٥ .

أهُمُّ بشيءٍ والليالـي كأنهـا تطاردنـي عـن كونـه وأطـارد
وحيداً من الخلان في كل بلدة إذا عظم المطلوب قل المساعد[1]

ولعل هذا التصور عن زمن المتنبي ، كان في ضمير الدكتور طه حسين حينما قال : "ديوان المتنبي إن صور شيئاً ، فإنما يصور لحظات من حياة المتنبي" [2] ، ومع التناغم والموضوعية ، سرت في شعر المتنبي طيوف من عقلية لغوية ، تتناقل مفردات اللغة عبر نظريات عقلية فلسفية ممتزجة بالبعد الأدبي فيها ، فيصور لحظات الزمن تصويراً متناغماً حياً ، يبدو فيه المتنبي الطرف الآخر المتفاعل الإيجابي .

ويتفق المدلول اللغوي لكلمة الزمن مع الزمان والدهر والأيام والليالي والآجال والأعمار والحوادث والحدثان وبنات الدهر في شعر المتنبي ، والأكثر تردداً الزمن والزمان والدهر ، "والدهر : مدة الحياة كلها ، والزمان الطويل "والنازلة"[3] ، " والزمان : الوقت قليله وكثيره ، ومدة الحياة كلها ، والزمن الزمان "[4] .

يتجه هذا البحث إلى محاولة لرصد تصور للزمن في شعر المتنبي ، من خلال ثلاثة مداخل : مفهوم الزمن ، الزمان والمكان ، الزمان الخبرة الذاتية .

مفهوم الزمان

ونحن في عراقيات المتنبي الأولى والشاميات ، لا نكاد نجد للزمن مفهوماً أو مشهداً فردياً في صورة مستقلة ، تشي بإرهاصات لوضوح مفهوم الزمن فيما بعد ، فما زالت تجربة المتنبي وخبرته تحبوان نحو إدراك عقلي متميز لتركيبة الحياة ، وقد انساب هذا الإدراك شيئاً فشيئاً ، من إخضاع المتنبي نفسَه للتحليل والدرس ، وتوجيه طاقاتها إلى التأمل في علاقة الإنسان بالزمن المحيط به ، فينبثق عن هذا التأمل شعور غامر بالتوحد ،

(١) السابق : ٣/٢٠١ .
(٢) مع المتنبي : ٣٧٩ .
(٣) المعجم الوسيط : ١/ ٣١٠ .
(٤) السابق ١/٤١٦ .

يوحد الإنسان في الإنسان ، ويوحده في قوى غيبية مجردة ويرقى به عليها ، كما يرقى بالإنسان على المادة ، ولعل هذا الشعور بالتوحد في عناصر الكون والإنسان ، كان الخاطر الملازم الذي وحد المتنبي في ممدوحه ؛ بل و وطن في نفسه أنه أعلى من كل ممدوح؛ لأنه يعطي ما لا يفنيه الزمان ، يعطي لغة العقل وعقلية اللغة ، وسراً من أسرار الصلة بين الإنسان والسماء ، واللغة والعقل خالدان خلود الإنسان ، أما الشعر ، مزيج اللغة والفن والفكر والجمال ، فهو هبة الله إليه دون غيره من جيله ، فغدا المتنبي نموذجاً نرجسياً أمام ذاته وجيله ، ولكنها ليست النرجسية التي يتعبد فيها المتنبي ذاته ،؛ بل هي يقين الإيمان بالإنسان الذي تتخلق ملكاته من تأثره بالمخلوقات والأشياء المدركة من حوله ، وغير المدركة أيضاً ، وقد شكلته العقيدة والثقافة ، فالإنسان يكون لائماً ، وعاشقاً ، وعاذلاً ، وحية تحيا في هجير الصحراء ، وأمضى في الحرب من ملك الموت ، وسارياً في الظلام كالخيال ، ومحبا للعز ، وقالياً للذل ، وجناً فوق طير كالجمال ، وكأن الأصل في الجمال أنها طير غامض يسبح بالجان في الفضاء ، فهذه المقدمة التي تنصهر فيها الأشياء والمخلوقات في خيال المتنبي ، هي مقدمة تمهيدية لاجتلاب عنصر الزمن ، يقول المتنبي ، في مقدمة غزلية في شامياته يمدح عبد الرحمن بن المبارك الأنطاكي :

لا تلمني فإنني أعشق العشاق فيها يا أعذل العُذّال
ما تريد النوى من الحية الذوّاق حَر الفلا وبرد الظلال
فهو أمضى في الروع من ملك الموت وأسرى في ظلمة من خيال
ولحتف في العز يدنو محب ولعمر يطول في الذل قال
نحن ركب ملجن في زي ناس فوق طير لها شخوص الجمال[1]

فإذا برز عنصر الزمن ، أضاف إلى الصورة نسيجاً من الوحدة الموضوعية ، تلتحم مع فكرة المتنبي في التوحد بعناصر الكون :

(١) معجز أحمد : ٢/٧١ .

من بنات الجديل تمشي بنا في البيد مشي الأيام في الآجال

إن المتنبي يبني صورته على عنصر الحركة الموارة ، والتي انسحبت أيضاً على جوانبها العاطفية في رسم لغوي تمثل في توظيف أسماء التفضيل ، [أعشق - أعذل - أمضى - أسرى] ، وتتجاوز الحركة في الصورة مستويات الإدراك ، لأنها تخرج عن دائرة الزمن الإنساني ، فهو أمضى من ملك الموت الذي لا ينازعه مضاءه إلا خالقه ، وأسرى من طيف خيال سار في ظلام ، ويرتقي إلى تلك الحركة المترفعة بارتقاء عواطفه ونوازعه البشرية ، فالموت العزيز محبوب ، والعمر الذليل مكروه ، وبين الحب والكره المجردين نترسم شخص المتنبي المترفع عن الانتساب إلى طائفة البشر ، ويكاد يقترب من تلك الدائرة المجردة المتخيلة خارج الزمن المحسوس . يقول في موضع آخر :

وإني لمن قوم كـأن نفوسهـم بها شمم أن تسكن اللحم والعظما[1]

ويؤكد المتنبي ذلك بملاحقة تصويرية يمتزج فيها المعنى بالمادة ، والمدرك بغير المدرك، فهو الجن في هيئة البشر ، فوق طير خرافي في هيئة الجمال ، وهذه الصورة معلقة في الصورة الأولى وتأتنس بها ، فالملائكة والجان من ذلك العالم خارج الزمن الإنساني ، كما كان الحب والكره مترفعين عن معناهما الدارج؛ لأنهما يسلمان إلى الموت ، وتكتمل الصورة بهبوطها إلى عالم الواقع المحسوس لتوطين التوحد والاندماج ؛ فتلك الجمال الطير من كرائم الإبل تنهب الفلوات ، ولكنها الأيام تنهب الآجال والأعمار ، فالإبل رمز الزمن المميت المتحرك في صمت ، والبيد رمز أجل الإنسان المنقضي ، وغلّب المتنبي في صورته التجريد ، ليتواءم مع تصوره للزمن وما وراءه ، كما أنه اختصر رؤيته للحياة والناس بطرفين متقابلين ، مادي : "تمشي بنا في البيد" ، مجرد : "مشي الأيام في الآجال" ، وإن كانت الحقيقة تكتنف الطرفين ، فإنها قائمة في الطرف المجرد على تجسيم الأيام المتحركة تفني الآجال المقدرة ، تأكيداً على عنصر الحركة الذي يمتزج فيه المحسوس بالمجرد ، والذي استغرقه في بداية الصورة .

(١) السابق : ٢/٢٦٨ .

ولأن عنصر الحركة قرين حركة الزمن ، فإن المتنبي يدقق في رصد الصورة الصامتة، حينما تشتمل على زمن بلا حركة ، ففي مدحه لسيف الدولة لهدية من ثياب ديباج رومية، رسمت عليها نساء روميات ، يقول المتنبي :

ولم يكفها تصويرها الخيل وحدها فصورتِ الأشياء إلا زمانها[1]

فاستثناء الزمان من التصوير ، هو استثناء الحركة والظرف الذي تحيا فيه الخيل والأشياء ، ودقة المتنبي في فهم الزمن ، هي التي حددت تصوره الجاف في هذا البيت ، فصور الصمت صمتاً ، وغاب عنه بث الحركة والحياة في الخيل والأشياء ، كما فعل البحتري في تصويره لوحة جدارية في إيوان كسرى بالعراق ، حيث جاوز تأثره بها كونها محض صورة ، فوضعها في سياقها الزمني الماضي وتجاوب معه ، فغدا يلمس شخوصها المجسدين (فيهم - تتقراهم - بلمس) ، يقول البحتري :

يغتلي فيهم ارتيابي حتى تتقراهم يداي بلمس[2]

غير أن المتنبي في تفريقه الحاد بين الخيل والأشياء/ وزمانها في الصورة ، وفي رصد الصورة مجردة من عناصر الحركة والحياة ، قد حدد ترتيباً للزمن في الحياة يفرضه السياق ، فالزمن هنا ظرف الحدوث المتحرك بالحدث وليس الإنسان ، وهو الحياة التي تشد الأحياء إلى خيوطها ، وهذا الترتيب يخضع لمنطق المتنبي العقلي الذي يشكله الدين والثقافة ، ويوافق فيه الكثيرين ، ولكنه يريد إخضاع الصورة لهذا المنطق ، " وهو المنطق القابع وراء طريقة الترابط النفسي والمونولوج الداخلي"[3] .

وإذا كان الترابط النفسي قوة دافعة للشاعر ، لتقييم علاقته بزمنه وتصنيفه ؛ فإن

---

(١) السابق : ٣/٢٤٤ .

(٢) ديوان البحتري ، ٢/١٥٢ ؛ تحقيق : حسين كامل الصيرفي .- القاهرة : دار المعارف .

(٣) هانز ميرهوف : الزمن في الأدب ، ص ٢٩ ؛ ترجمة : الدكتور أسعد زروق ، ومراجعة : العوضي الوكيل .- القاهرة : مؤسسة سجل العرب ، ١٩٨٢م .

"المونولوج الداخلي يبدو وكأنه الرواية الحقيقية للزمن " [١] ؛ لأنه الحوار النفسي الذي يبني منطقية الرؤى في ضمير الشاعر حينما يتمثل الأشياء وغيرية الآخر ، والزمن ظرف الأشياء وعلاقة الغيرية ، فهو زمن داخلي ، يولد ويهرم وقد يموت في الإنسان قبل موت الإنسان ؛ لأنه الحركة الذاتية الدافعة المسيطرة ، حين يفقد الإنسان الشعور بها يفقد الشعور بالحياة ، يقول المتنبي في تعزية سيف الدولة لوفاة أخته الصغرى سنة ٣٤٤هـ :

وإذا الشيخ قال : أفٍّ فما مَلَّ حياة وإنما الضعف ملا

آلة العيش صحة وشباب فإذا وليًا عن المرء ولّى [٢]

فالإنسان لا يمل زمن الحياة ، وإنما العجز عن الحركة وممارسة الحياة بالصحة والشباب، ولا تخفى الدلالة الرمزية لكلمة "آلة" ، فهى تحمل من المتنبي المحايدة في استخدام اللغة ، فتتجرد عن العاطفة الخاصة أو ظلال التأثر ، كما قال آنفاً : "إلا زمانها"، كما تحمل من المتنبي العقلية اللغوية في صياغة الجملة ، فاللغة تطغى على جانبها الفكري بتأثير تلك المحايدة والموضوعية ، فتميل الفكرة إلى جانب الحكمة ، بقدر ما تبتعد عن ظلال العاطفة .

وهذا الزمن / ظرف الحدوث والحياة عند المتنبي ، ينعكس عليه أبعاد ذلك الحوار النفسي ، فينحى التداخل مع الآخرين ليفيض من منطقه الخاص ، ويكون هذا الزمن الظرف هو "الجوهر ، بمقدار ما تتمتع صفاته بمغزى ذاتي ، وليس بمقدار ما تشير خواصه إلى تركيب موضوعي في الطبيعة ، ونقطة انطلاق الشاعر/المتنبي هي زمانية وجوده الإنساني أو تاريخيته"[٣] .

والأرجح أن إدراك المتنبي الحقيقي لوجوده وتاريخيته ، كان وهو مازال في الكوفة وسنه دون العشرين ، وأن هذا الإدراك تولد من شيئين ، الأول : شعور قدري غامر بالتميز

(١) الزمن في الأدب : ٣١ .

(٢) معجز أحمد ٤٩٦/٣ .

(٣) الزمن في الأدب : ١٥٠ .

ينتشي له المتنبي فيندفع إلى مستويات نفسه العليا يؤكدها بالتصوير المترقب للمستقبل المأمول ، من ذلك ما روى في صباه ، فقد تعجب بعض أصحابه من وفرته (شعره الطويل المسترسل المكتمل) قائلاً : .. ما أحسن هذه الوفرة ؟ ، فقال المتنبي الصبي ارتجالاً :

لا تحسن الوفرة حتى ترى منشورة الضفرين يوم القتال

على فتى معتقل صعـدة يعلها من كل وافي السبال[1]

إنه يعلق حسن وفرته إلى زمن لم يتحقق بعد ، فربما دفعه الخجل إلى ذلك ، لكي يسرع بتحطيم هذه الصورة التي أعجبت أصحابه ، وهى صورة يمدح بها الصغار والنساء ، والمتنبي الصبي يرى في نفسه أنه فوق ذلك وأعظم ، لأنه يتوق إلى زمن الفتوة والشباب ، "وإنما هو يتحرق شوقاً إلى الشباب الذي يمنحه القوة والحرية ، وإلى الظروف التي تتيح له خوض غمار الحرب ، وعلى صعدته من دماء الأعداء"[2] ، وإن تعليق المتنبي على إعجاب أصحابه ، هو تعليق المتيقن من حتمية نهايته و وفرته ، غير أنه يختار تلك النهاية من خيارات متعددة ، وفق ما أتاح له زمنه من ثقافة وتصور وفكر العقيدة .

وهذان البيتان كانا موضع استنباط عميق أفاض فيه الشيخ محمود شاكر ، حيث استل منهما ستة أصول نفسية في شعر المتنبي ، تستقرئ ما يتصل" بإمكانات المتنبي الشعرية ، وصفاته العليا ، وثورته الدائمة التي فطر عليها ، ورغبته الملحة في الثأر ، وتحديد العدو ، وأثر جدته فيه" [3] ، وأتفق مع الشيخ شاكر ، إلا في الأصلين الرابع والخامس ، وتوضيح ذلك في الشيئ الثاني .

والشيئ الثاني الذي تولد منه إدراك المتنبي لوجوده وتاريخه ، قياسه بين صورتين ، وفق مناهجه الدراسية المتاحة ومنطقه في الاستخلاص منها ، صورة مثالية للعرب في زمن

---

(١) معجز أحمد ٣٨/١ .

(٢) مع المتنبي : ٤٠ .

(٣) المتنبي : ١٨٣ ، ١٨٤ .

سابق ، وصورة وضعية يعايشها تنهشهم فيها ذئاب الأمم الأخرى وقد تملكوا الحكم والسيطرة في بلاد العرب ، فيقول المتنبي في صباه وهو دون العشرين أيضاً ولما يغادر الكوفة فيما قبل سنة ٣٢١هـ :

إلى أي حين أنت في زي محرم ... وحتى متى فـي شقـوة ؟ وإلـى كـم ؟
وإلا تمت تحت السيوف مكرمـاً ... تمـت وتقـاس الـذل غيـر مكـرم
فثب واثقـاً بالله وثبـة ماجـد ... يرى الموت في الهيجا جنى النحل في الفم[١]

فاستثقال الزمن على دعة وسكون وشقاء ، واستبطاء اندفاع النفس إلى الهيجاء ، والإلحاح المرير على الموت الكريم للفرار من قسوة الذل تحت ضغط بشري ، والوثوب الماجد الواثق بالله ، والجزاء المطمئن بعد الموت "جنى النحل في الفم" . هي صور لمعان حميمة متمناة في قادم زمن المتنبي ، تتوافق وثقافته وفكره الديني المتغلغل في كيانه ، وتتعارض مع واقعه بناء على تصور ماضيه ، مما يعني أنه يتعجل الاستشهاد في سبيل الله ؛ دفاعاً عن أمته وكيانها الذي وقر فيه من إحساسه بكيانه وتميزه ، ولا يستقيم هذا التصور مع ما ذهب إليه الشيخ شاكر ، حيث يرى المتنبي يعرض بسكونه في زي الإحرام ؛ "ليُحِلَّ بقتل العلويين" [٢] ، فثقافة المتنبي إذ ذاك تمنعه من الإحلال بقتل المسلمين ولو كان على خلاف معهم ، وديدنه بعد ذلك في حياته من شعره ليس الغدر والخيانة ؛ بل الحنين الجارف إلى مراحل الزمن الماضي وإن كانت مؤلمة ؛ لأنها غدت ذرة من تكوينه النفسي والعقلي والجسدي ؛ ولذا ، يستوي الشيب بالصبا أمام ذلك الحنين ، وتشع منه شفافية الاستسلام لمقود القدر في رحلة الإنسان عبر زمنه . يقول المتنبي وقد ساقته خطاه إلى مصر ، فيحن إلى الماضي كما يحن إلى خطا القادم المجهول :

خلقت ألوفاً لو رجعت إلى الصبا ... لفارقت شيبي موجع القلب باكيا[٣]

---

(١) معجز أحمد : ٥٤/١ .

(٢) المتنبي : ١٨٤ .

(٣) معجز أحمد : ٢١/٤ .

ثم كيف تكون جدته من "صلحاء الكوفة" [١] وتدفعه دفعاً إلى التهلكة الخاسرة في ثأر يسعى له وحده ، وكيف يتفق الصلاح والانتقام والوثوق بالله ؟ . وإذا كانت هذه الأبيات بعيدة عن مغزى الشيخ شاكر فيها ، فإنها أبعد عن مغزى الدكتور طه حسين ؛ إذ يرى فيها أنها " تصور تأثر المتنبي بالبيئة العملية القِرمطية" [٢] ، فيحل ما حرم الله ، ويتعرض للبأس والفتك ، ويصطلي بنار الحرب اتقاء لموت ذليل" [٣] ، وجدير بالذكر أن هذه البيئة القرمطية التي أشار إليها الدكتور طه حسين ، تعتمل فيها أفكار الباطنية غلاة الشيعة ، وهم أيضاً " الملحدة ؛ لما في ضمن مقالتهم من الإلحاد"[٤] ، والمتنبي بعيد عن تلك البيئة وهذه الأفكار ، وشعره لا يصل إلى صفوه هذا الكدر الفكري الملحد ، والمتنبي يؤمن بالله والأنبياء والملائكة والجان ويؤمن بالإنسان، فليس طاغي الخصومة في ثورته على العلويين، وتأبى شخصيته أن يكون تابعاً من الغلاة الذين ألحدوا في ركاب قِرمط ، الفرج بن عثمان (ت٢٩٣هـ) وقد قتل قبل مولد المتنبي بثمانية أعوام ، و"خلف دعوة تستبيح الإلحاد والتحليل والتحريم" [٥] .

والحق أن المتنبي حينما اختلف مع قومه وغضب عليهم رحل عنهم ، وهذا الرحيل صورة من صور إدراك وجوده وتاريخيته ، و وضوح في رسم منهج للحياة خلال زمنه ، إنها قضية إنسان متميز يقف موقفاً من أحداث بشرية دافعة ، فيغترب وقد اعتصره الحزن ، مؤمناً بنفسه ، مسلماً قياده لخالقه ، يقول المتنبي :

تغرب لا مستعظما غير نفسه ولا قابلاً إلا لخالقه حكما[٦]

---

(١) المتنبي : ١٨٥ .

(٢) مع التنبي : ٤٤ .

(٣) مع المتنبي (بتصرف) : ٤٣ .

(٤) مقدمة ابن خلدون ، للعلامة عبد الرحمن بن خلدون المغربي، ص١٤١ ، دار ابن خلدون الإسكندرية.

(٥) خير الدين الزركلي : الأعلام :١٩٤/٥ .- بيروت ، لبنان : دار العلم للملايين ، ١٩٩٥م .

(٦) معجز أحمد : ٢٦٥/٢ .

فكان التغرب هو الثورة المتاحة على الذين يتعظمون عليه بغير استحقاق ، "ويستضعفونه ويسفهون رأيه ويخفون عنه نسبه"[1] ليفصلوا بين حاضر المتنبي وماضيه، فيقطعوا إحساسه بالزمن الذي يمتزج فيه ، وآثر المتنبي بنبوغه أن يرتقي فوقهم فلا يستبيح دماءهم معظماً نفسه وحكم خالقه ، وهذا المعنى المسالم ، لم يكن بعيداً عن العكبري (٥٣٨ : ٦١٦هـ) ، حينما علق على البيت ساخراً بقوله : "وهو من باب التكبر والحمق المعروفين له" [2] .

ولعل استشراف عاملي إدراك المتنبي الحقيقي لوجوده وتاريخيته (شعوره الغامر بتميزه ، وإدراكه المفارقة بين حاضر أمته وماضيها) ، يضيء لنا جانباً من رؤية المتنبي للزمن ، فالزمن صورة واضحة المعالم والقسمات في شعره ، وإن لكل صورة ظلالاً وهالات من المشاعر الغامضة التي تصحبها في عالمها المجرد؛ وفق مدى تأثر الشاعر بمجريات الزمن من حوله ، وما آلم المتنبي ، آلمه على صعيد تجربته الشخصية ، وليس على صعيد الزمن الطبيعي في تعاقب الليل والنهار ، ومع الإنسان وليس مع قوة خفية ، ولكن الزمن عند المتنبي هو ظرف الحياة وما يقع فيها ، ويقع عليه ما يقع على أهله ، يقول القاضي الجرجاني (٢٩٠ : ٣٦٦هـ) :

"فأما الدهر ، فإنما يراد بذكره أهله ، فإذا جعل الشاعر للدهر ساعداً وعضداً ومنكبا ، فقد أقيم أهله مقام هذه الجوارح من الإنسان ، وأما أبيات شتائم الدهر ، فإنما صدرت مصدر الهزل ، وجرت على عادة في الاستعمال متداولة .. فالدهر صار كالشخص المحمود المذموم ، والإنسان المحسن المسيء ، فوصف بأوصافه ، وحلي بحلاه ، وجعل له أعضاء تُعَدُّ وتُنعت ، وتستكرم وتستهجن" [3] .

---

(١) المتنبي: ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي ، بشرح أبي البقاء العكبري ، ج ١٠٧/٤ ؛ ضبطه وصححه ووضع فهارسه : مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، ط الأخيرة ، القاهرة ١٩٧١م .

(٣) الوساطة : ٤٣٠ ، ٤٣١ .

فالمتنبي حينما يتجهم للزمن ، فإنما يتجهم لأفعال البشر التي تجسمت في شخوص يستهجن صفاتها الدميمة ، يقول المتنبي في مدح علي بن المكرم التميمي ، ويذم الزمن وأهله سنة ٣٣٥هـ :

أذم إلـى هـذا الزمـان أهيلـه فأعلمهم فدم ، وأحزمهم وغـد
وأكرمهم كلـب ، وأبصرهـم عـم وأسهدهم فهد ، وأشجعهم قرد
ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له ما من صداقته بـد[١]

فربما أوحى المتنبي بتمايز الزمان عن الناس ، ولكن لا يكون زمان بلا ناس في دنيا، وهو ما أقره في البيت الأخير ، بعد تصغير أهل الزمان وتحقيرهم ، في صورة أدنى تقوم على التضاد والمبالغة ؛ فأعلم الناس غبي ، وأحزمهم عبد مملوك لا خير يرجى فيه ، وأكرمهم كلب خسيس ، وأبصرهم عم "ذهبت بصيرته ولم يهتد إلى خير"[٢] ، وأسهدهم فهد خامل كثير النوم ، وأشجعهم قرد جبان ، والمطابقة والمبالغة - كما يقول الدكتور طه حسين : "القوام الفني لشعر المتنبي .. ذلك أنه يحسن المقابلة بين الأضاد في أنفسها ، كما يحسن المقابلة بين الألفاظ التي يختارها ليدل بها على هذه الأضداد"[٣] .

ويعلق الدكتور صلاح فضل على تلك المقولة ، مبرزاً دور الطباق والمبالغة في التركيب والإيحاء والرؤية فيقول : "ولو شئنا أن نبحث لهما ترجمة نقدية معاصرة تضعهما في إطار فني أشمل ، رأينا أن الطباق يعود إلى المحور السياقي التركيبي ، وأن المبالغة تعود إلى المحور الاستبدالي الإيحائي . ولو أمعنا في تتبع النموذج البنيوي الدال في شعر المتنبي ، لوجدناه يقع في منطقة أبعد بكثير مما يطفو على سطحه من مفارقات لفظية ومعنوية ؛ إذ يربط بحذر المفارقة والتوتر بين مقتضيات الموقف الاجتماعي الوظيفي من

(١) معجز أحمد : ٣٥٢/٢ .
(٢) المعجم الوسيط : ٦٥٢/٢ .
(٣) مع المتنبي : ٥٠ ، ٥١ .

ناحية ، وحالات النزوع الفردي للتميز والحراك الطبقي من ناحية أخرى ، مما يؤدي إلى إبراز الإشكالية في الرؤية على مستوى الصياغة والتعبير"[١] .

وإن الطباق والمبالغة بهذا التصور لهما عمق في فهم المتنبي لمضمون الزمن، باعتبارهما أداتين لغويتين تصوران مجرى السلوك النفسي للمتنبي ، حينما تستثيره تلك الصفات البشرية البغيضة ، يقول المتنبي في مدح المغيث بن علي بن بشر العجلي سنة ٣٢٧هـ :

فـؤاد ما تسليـه المـــدام وعمر مثل ما تهب اللئـــام

ودهـر ناسـه نـاس صغـار وإن كانت لهم جثث ضخام

وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام[٢]

فإدراك المتنبي لوجوده هو إدراك للآخر ، ولكن إدراك الآخر إدراك طردي تستبين فيه صورة المتنبي بوصفها بؤرة مضيئة يتحرك حولها الآخر السلبي ، فإلى جانب التضاد الدال في صغار/ضخام ، ما أنا / منهم ، الذهب / الرغام ، تتجه الصورة إلى إثبات انحطاط الآخر وتمكنه من الشر والدونية (اللئام ، صغار ، جثث ، الرغام) ، وهذا التوجه إلى الشر طبيعة بشرية ، وهو زمن ، ولكنه الزمن البشري ، قوة دافعة داهمة كالسيل ، صنعتها أحداث متراكمة وأفكار متداخلة مختلفة متقاطعة ، وأجيال متباينة الخلقة والخلق والسلوك ، كعرب وفرس وترك وديلم وروم وغيرهم ، ممن تناهت سيرتهم إلى ثقافة المتنبي الواسعة ، هذه القوة هي قوة الدهر أو الزمن أو الزمان بوصفه ظرفاً يتحرك فيه الإنسان ، قوة دفع بشرية مائجة في بحر المعرفة لا الإرادة الإلهية ، قوة متراكمة مؤسسة على غير منهج أو نظام لتواتر أخطاء الإنسان ، فلا تندفع هذه القوة إلى هدف نافع مرصود ، وربما يعزو المتنبي تخلف الأمة - أي أمة - إلى هذه القوة العمياء ، قوة الزمن البشري الذي يطفو فيه القوي وينحط الضعيف .

---

(١) الدكتور صلاح فضل : شفرات النص ، ص ٢١٠ ، ٢١١ ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، كتابات نقدية (٨٥)، القاهرة ١٩٩٩م .

(٢) معجز أحمد : ٣٥٦/١ .

من هنا ، فإن الزمن عند المتنبي مخلوق متوهم يجري عليه ما يجري على الناس ، فقد يكون الزمن بعد ذلك التصور إنساناً . ويروى عن معاوية قوله : "نحن الزمان ، فمن رفعناه ارتفع ، ومن وضعناه اتضع"[١] ، بقوة السلطة المؤثرة الدافعة ، وإرادة الفعل البشري ، وليس هذا تعارضاً مع الفكر الإسلامي الفلسفي عن الله الخالق تعالى ، فيرى فخر الدين الرازي وبعض المفسرين ، أن " الأول والآخر هما صفتا الزمان لله تعالى ، وأن الظاهر والباطن هما صفتا المكان له ، ولكن هذا لا يعني أن الله موجود في الزمان ، أو أنه حال في المكان ، بل هو منزه عنهما ، ولكنه مدبر للزمان والمكان فحسب"[٢] .

فالله تعالى منزه عن إرادة الشر في فكر المتنبي وشعره ، ولكنه الزمن البشري المتراكم المندفع بلا إرادة مسئولة ، يستهدف أفاضل الناس حينما يجابهونه بالفكر وإرادة التغيير والتطوير ، ويتجاوز هذا الزمن الغالبية الغافلين ، "جيل سواسية" ، "الأمة الشر"[٣] ، والتي أيضاً أداة للزمن على الأفاضل الأحرار ، يقول المتنبي :

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن يخلو من الهم أخلاهم من الفطن

وإنما نحن في جيل سواسية شر على الحر من سقم على البدن[٤]

"وإنه لأمر مثير للاهتمام حقاً ، أن نتأمل هذا النمط من تقابلات البنية ، وأن نلحظ تجليات العلاقة بين طرفيه إيجاباً وسلباً ؛ لنرى كيف أن الشاعر ما يكاد يتهيأ للحديث عن نفسه حتى يشير إلى أعدائه (الزمن البشري) صراحة أو إيماء ، وما يهم بأن يضيف إلى تلك سمة من سمات الكمال ، حتى يبادر إلى نفيها عن هؤلاء ، وكأن هذه المفاضلة الدائبة تشكل العصب الداخلي لبناء القصيدة وتحكم مساره ، كائناً ما كان قدر هذه المفاضلة من الوضوح والاستتار"[٥] .

---

(١) السابق : ٥٨٧/٣ .

(٢) إبراهيم العاتي: الزمان في الفكر الإسلامي .- ط١ .- لبنان : دار المنتخب العربي ، ١٩٩٣م ، ص٦٣ .

(٣) المعجم الوسيط : ٤٨٤/١ .

(٤) معجز أحمد : ٢١١/٣ .

(٥) الدكتور محمد فتوح أحمد : شعر المتنبي قراءة أخرى.- ط٢ .- القاهرة: دار المعارف ، ١٩٨٨م ص٦٤، ٦٥.

ويلح المتنبي على هذه المفاضلة بكل سبيل ، ففي مدحه لسيف الدولة يبرز الزمن البشري ظرفاً قاضياً مصرفاً للفوائد والمصائب بين الناس :

بذا قضت الأيام ما بين أهلهـا مصائب قوم عند قوم فوائد[١]

وإذا كان الزمن البشري المتراكم المخلوق يستهدفه وهو من أفاضل الناس ، ويقضي بالسعادة أو الشقاء وهو تحت قوة ضغط إجبارية ، فعلى المتنبي/ الإنسان ،صاحب الوجهة النفسية الحادة المنحازة ، أن يتخذ موقفاً نفسياً مضاداً ، يحيا به شخصه ، وتنماز به صفاته ، فلا غرابة إن ذل هذا الزمن وضاق بالمتنبي ذرعاً ، في مرحلة تحول فيها الآخر إلى زمن ، فوقف دون نفس المتنبي ، ودونه الناس أداة الزمن ، أما طبقة الكرام التي اتحد المتنبي في صفاتها ، فإنها الأرقى ، وقد صور بالتجسيم الزمن دون نفسه ، أما الأنام فدونه ، وكلاهما واحد ، غير أن الأنام حاضر الزمن البشري ، أما الزمان فهو الزمن البشري الماضي المتراكم ذو التأثير الممتد ، ويبرز هذا في المدح ، دلالة إصراره على وجوده وتاريخيته وأفضليته وتميزه ، يقول في مدح علي بن أحمد المري الخراساني :

ضاق ذرعاً بأن أضيق به ذرعـاً زمانـي واستكرمتنـي الكـرام

واقفاً تحت أخمصي قدر نفسي واقفاً تحت أَخْمَصَى الأنام[٢]

فالزمن لذلك دون إرادة الإنسان العظيم ؛ لأن الزمن هو مجموع إرادات بشرية . يقول في مدح الحسين بن إسحاق التنوخي :

ولا تفتق الأيام ما أنت راتق ولا ترتق الأيام ما أنت فاتق[٣]

ويقول في مدح محمد بن زريق الطرسوسي :

بمن أضرب الأمثال أم من أقيسه إليك ؟ وأهل الدهر دونك والدهر!![٤]

---

(١) معجز أحمد : ٣/٢١١ .

(٢) السابق : ٢/٢٢٢ .

(٣) السابق : ١/٢٧٨ .

(٤) السابق : ١/٢٣٣ .

وبعد تدني مكانة الزمن في فكر المتنبي ؛ فإنه لا يعدو أن يكون بعداً شعورياً مجرداً وغامضاً بين الإنسان والحياة ، يتسع ويضيق وفق طاقة الإرادة الإنسانية وسلطانها وتأثيرها . يقول في مدح عضد الدولة أبي شجاع سنة ٣٥٤هـ ، في قصيدة من أخريات شعره قبل مقتله في العام نفسه :

تجمعت في فـؤاده همـم ملء فؤاد الزمان إحداهـا

فإن أتى حظـها بأزمنـة أوسع من ذا الزمان أبداها(١)

وهذا المفهوم لا يبتعد كثيراً عن تصور معاوية السابق : "نحن الزمان ، فمن رفعناه ارتفع ، ومن وضعناه اتضع" ، كائن مجرد ، يتشكل من حركة الحدث الإنساني في ضمير الإنسان، نتيجة مجموعة من التجارب العميقة التي تلمس آفاقاً من الثقافات . فالإنسان هو جوهر هذا الزمان ، وإذا كانت كلمات الزمان أنساقاً صرفية ولغوية ، فإن الإنسان هو الدلالة الحقيقية التي تسلم إلى تلك الأنساق ، يقول المتنبي في مدح أبي العشائر الحمداني :

الناس ما لم يروك أشباه والدهر لفظ وأنت معناه(٢)

وبهذه الرؤية الخاصة للزمن في شعر المتنبي ، تتحدد علاقات المتنبي به ، وهذا ما يحاول البحث السعي إليه في الفصلين التاليين .

الزمان والمكان :

بناء على تصور المتنبي السابق للزمن الدافع للأحداث والخطوب ، وهو الزمن البشري ، تتضخم فكرة المفاضلة ، ومن ثم تتضح فكرة نفي الآخر ، في صورة الترفع عن الانتساب إلى الزمن ولو كان عمراً يحمل الإنسان ، والترفع عن الانتساب إلى المكان ولو كان وطناً ؛ لأن الزمان والمكان هما وجه الإنسان . وهذا الشعور بالترفع يمثل يقيناً ملحاً في فكر المتنبي وسلوكه ، يسوقه إلى ممدوحيه وحاسديه على السواء ، في بناء لغوي تتحد

(١) السابق : ٣٣٣/٤ .

(٢) السابق : ٥٣١/٢ .

فيه عقلية المتنبي المنطقية ومحايدته اللغوية ، يقول في مدح أبي سهل الأنطاكي :

وهكذا كنت في أهلي وفي وطني إن النفيس غريب حيثما كانا ؟[1]

ويقول :

غنى عن الأوطان لا يستفزني إلى بلد سافرت عند إياب[2]

ويقول في نهاية رثائه لجدته ، موجهاً الخطاب إلى شانئيه :

وإني لمن قوم كأن نفوسهم بها أنف أن تسكن اللحم والعظما

كذا أنا يا دنيا إذا شئت فاذهبي ويانفس زيدي في كرائهها قدما

فلا عبرت بي ساعة لا تعزني ولا صحبتني مهجة تقبل الظلما[3]

فالاغتراب هو ديدن المتنبي ، اغتراب عن الأهل والوطن والمكان والجنس البشري ؛ بل عن الزمن الذي يضم تلك الأشياء ، وهذه الغربة كانت مبكرة في عمر المتنبي ، ولكنها استوت في رحاب فكره وآماد خبرته . يقول المتنبي سنة ٣٥٢هـ بعد خروجه من بغداد إلى الكوفة ، يذكر مسيره من مصر :

وقت يضيع ، وعمر ليت مدته في غير أمته من سالف الأمم

أتى الزمان بنوه في شبيبته فسرهم ، وأتيناه على الهرم[4]

إن لغة المتنبي تحاكي نفسه العليا حينما تستشرف هذه النفس مستويات المعرفة في الوجود الإنساني ، فقد تجنح اللغة إلى الموضوعية ، فتغلب عليها ملامح التقرير والمباشرة وإن لم تعدم التصوير" وقت يضيع ، أتى الزمان ، وأتيناه ، وهكذا كنت ، إن النفيس غريب ، غنى عن الأوطان .. " كما يسيطر التوازن التركيبي في السياق الشعري على عاطفة اللغة فنتعاطف مع المتنبي ، ولكنه تعاطف العقل مع الوجود الإنساني وإبداعاته .

(١) السابق : ٢/٢٩٣ .

(٢) السابق : ٤/١٤٩ .

(٣) السابق : ٢/٢٦٨ .

(٤)السابق : ٤/ ٢٥٠ .

وعندما تتماثل العاطفة مع الزمن في لغة المتنبي ، تتفاعل مع الإنشاء فيها ، فتحاكي اللغة التجربة النفسية العميقة لا نفسه العليا ، فتعجز اللغة عن المحايدة ، وتتولد دلالة نفسية خاصة من السياق ، تثيرها طاقة المتنبي العاطفية الراكدة المركوزة في شخصه ، ولكنها تتخفى بين ملكات اللغة ورغبة المتنبي في إخفائها ، ولكن تصادمه مع الإنسان آلة الزمن وجوهر الشر فيه يبرز هذه الطاقة ، طاقة رفض الخوف والإذعان إلى توجه الزمن البشري ، وإزاء تناغم لغة المتنبي مع تلك الطاقة في رصد تأثير الزمن ، تتحول هذه اللغة إلى أحد مستويات السلوك والاندفاع لتحرير النفس ، واللغة - كما يرى تشومسكي - وعلماء النفس "نوع من السلوك الأكثر تعقيداً ، تتأكد فيه العلاقة بين المحتوى الدلالي العميق والصيغة النظمية" [(١)] ، يقول المتنبي :

فلا عبرت بي ساعة لا تعزني ولا صحبتني مهجة تقبل الظلما

لقد احتشد المتنبي لهذا البيت ، وكأن القصيدة كلها إرهاصات وأنساق دلالية تسوق إليه ، فالتجربة الحادة مع المجتمع أفرزت اغتراباً جديداً يكاد يأوي إليه المتنبي فراراً من نفسه وقلبه ، في عملية تجزيء مباشر لأوصال الشاعر الإنسان ومشاعره . ولمغزى العبور قيمة تنبني عليها فكرة الاغتراب ، ولكنه الاغتراب العزيز الذي يبقي الإنسان إنساناً ، ويعقد عليه خطوة جديدة في العمر ، إيذاناً بصحبة الإنسان لنفسه ومشاعره ، وقد جاء عنصر الزمن بعد تمهيد يصور موقف المتنبي الغاضب من الناس ، وجاء في جملة فعلية إنشائية غامضة المستقبل لا اسمية تقريرية "فلا عبرت بي ساعة .." لأن الفعل يحاكي الزمن ومضي الدهر ، وإن كانت دلالته محاكاة العبور في المكان ، "وإنما الدهر مضي الليل فالنهار ، فهو إلى الفعل أقرب .. ويتعدى الفعل إلى ما كان وقتاً في الأمكنة ، كما يتعدى إلى ما كان وقتاً في الأزمنة ؛ لأنه وقت يقع في المكان"[(٢)] ،

(١) جودث جرين : علم اللغة النفسي ، تشومسكي وعلم النفس ؛ ترجمة وتعليق : د. مصطفى التوني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٣م ، ص٢٢٥ ، ٢٢٦ .

(٢) سيبويه (ت١٨٠هـ) : الكتاب : ٣٦/١ ؛ تحقيق : عبدالسلام هارون ، مكتبة الخانجي ، ص٣ .

فالعبور إلى المكان كالعبور إلى الزمان ، ولكن الزمان يتقدم عند المتنبي؛ لأنه المسيطر المجرد الأشمل المتبوع بالمكان ؛ "لعلاقة الزمان بالعالم الداخلي للانطباعات والانفعالات والأفكار ، التي لا يمكن أن نضفي عليها نظاماً مكانياً" (١) .

وإذا كانت طبيعة الزمان مقترنة بتصور المتنبي له ، فإن " المكان هو الميقاتة التي تلاحظ على صفحتها حركة الزمان " (٣) ، ومن تبعات المكان الجسد ، أما النفس فإنها قرينة الزمان المجرد ، وطرح هذه الفكرة تأكيد لعملية التجزيء التي يلح عليها المتنبي ، فيتبدل الجسد ، وتثبت النفس قوية مشاكسة لأن زمانها ومجالها الخلود ، وهى أرقى من الانتماء إلى المكان ولو كان وطناً ، فالمكان الأسمى مكان زمني (الارتحال - سرج سابح)، فهو قرين حركة إلى الأمام تتواكب مع حركة الزمان إلى الأمام ، والصاحب الأسمى الذي يسمو بالنفس صاحب زماني خالد (العلم - الكتاب) ، يقول في آخر ما أنشده كافوراً ولم يلقه بعدها سنة ٣٤٩هـ :

وفي الجسم نفس لا تشيب بشيبه ... ولو أن ما في الوجه منه حراب
يغير مني الدهر ما شاء غيرها ... وأبلغ أقصى العمر وهي كعاب
وإني لنجم يهتدى صحبتي به ... إذا حال من دون النجوم سحاب

ويقول في القصيدة نفسها :

غني عن الأوطان لا يستفزني ... إلى بلد سافرت عنه إياب

ويقول :

أعز مكان في الدنى سرج سابح ... وخير جليس في الزمان كتاب(٣)

فلعل المتنبي حينما يوازي بين حركة الزمان للأمام وثبات النفس ، كان متأثراً

---

(١) الزمن في الأدب : ٧ .

(٢) عبدالإله الصائغ : الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام .- بغداد ، العراق : دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية) ، ص٢٦٠ .

(٣) معجز أحمد : ١٤٦/٤ .

بالفكر الفلسفي في البيئة المصرية القديمة ، والذي امتدت جذوته إلى ذاك الوقت ، إلى جانب الفكر الفلسفي الإسلامي ؛ لتظل الثقافة المصرية حاضرة مؤثرة في كل عابر بها ، "فقد كانت البيئة المصرية قديمة العهد بالحياة العقلية على اختلاف ألوانها ، أقدم عهداً بها من دار الخلافة نفسها .. ولم يكن هناك فرع من فروع العلم والفن والفلسفة يزدهر في بغداد إلا وله حظ من الازدهار في مدارس الفسطاط ومساجدها ، وأندية السادة والقادة من أهلها .. والحضارة المصرية لقيها المتنبي في الفسطاط متنوعة مختلفة ، أشد عمقاً وتفاوتاً مما رأى في حلب .. ولذلك فقد ظل المتنبي ملاحظاً نفسه ، مراقباً فنه ، لا يظهر الشعر ولا ينشده إلا بعد الامتحان والابتلاء والتمحيص" [(١)] .

فالمتنبي كأنه يحاكي رؤية الفيلسوف المصري أفلوطين (٢٠٥ : ٢٧٠م) للزمان ، حيث يربط أفلوطين "بين الزمان والحركة ، فالزمان نشاط النفس وقدرتها على الحركة والانتقال ، ولكنها حركة الفكر وانتقاله ، ويكون البحث عن حقيقة الزمان في طبيعة العالم (المكان) .. والنفس هي أول شيئ يستدعي وجود الزمان وتحتفظ به ، والزمان دائم الوجود ، لأن النفس لا تغيب عن أي جزء من أجزاء العالم ، شأنها شأن نفوسنا لا تغيب عن جزء من أجزاء أجسامنا"[(٢)] .

فالزمان هو النفس يحيا به العالم ، كما أن النفس هي حياة الجسم الإنساني ، فالزمان والنفس زمانان ، والعالم والجسم مكانان ، غير أن نفس المتنبي تند عن تغيير الزمان لأنها أرقى من الزمان ، ويرقى بها المتنبي إلى درجة استعلاء تتيح له الأفضلية على الأقران ، وليست الاستمرارية هي مجال الأفضلية ؛ بل التميز بالنور والهداية ، في حين يتخبط الأصحاب في علاقة النفس بالشيب بالزمان بالإنسان :

---

(١) مع المتنبي (بتصرف) : ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

(٢) د. يمنى طريف الخولي : إشكالية الزمان في الفلسفة والعلم ، ص٣٧ ، ٣٨ عن (أميرة مطر : الفلسفة اليونانية : تاريخها ومشاكلها ، دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٨٨م) مجلة البلاغة المقارنة (ألف) ، العدد التاسع ، ١٩٨٩م ، الجامعة الأمريكية بالقاهرة (إشكاليات الزمان) .

وإني لنجم يهتدي صحبتي به إذا حال دون النجوم سحاب

إن النفس هي شاغل المتنبي في حركتها مع الزمن ، والنفس هي الأهم ، والزمن هو العنصر الموازي في الأهمية ؛ لأنه العنصر الذي يحافظ على عملية الاتصال المتميز بينه وبين الآخر على اختلاف ثقافته وعقيدته ، على حين تظل النفس سجينة صاحبها بعقيدته وفكره وثقافته ، فالزمن قرين الحرية ، يوازن به بين حاضره وماضيه ، كما أنه الممر العميق الذي يأوي إليه ، حينما يدرك عدم تأثيره في غيره ، فيبدو كمن يحدث نفسه ، وكان عليه بدون عنصر الزمن ، أن يخجل من الآخر لافتقاده أحد عناصر المشاركة ، أو أن يفقد الثقة في نفسه وهو في صراع دائم مع الإنسان ، وفي الحالين يفقد التواصل ، وهو من أهم عناصر الإبداع الذي أجبر عليه المبدعون .

خطاب الزمان بلغة المكان :

إن مخاطبة الزمان بلغة المكان ، أو تجسيم الزمن وإحلال بعد مكاني فيه ، ظاهرة تصويرية في شعر المتنبي ، تنتمي إلى ثمرة ارتقاء المتنبي بالنفس فوق الزمان والمكان ، حيث تختلط الموضوعية بالذاتية ، وفق المعرفة النفسية التي تنسخ الشعور بالآخر ، وتثبت عالماً ذهنياً قائماً على التقاء ثقافة التجربة بثقافة الإحساس باللغة ، فتتوهج العاطفة الحزينة ؛ لأنها وليدة مراحل كامنة متعاقبة ، فالآن يحزن المتنبي؛ لأنه يخاطب الزمان المجرد الوقتي نقيض المكان ، باعث الغموض والترقب في نفس المتنبي . يقول في مفتتح هجائه كافوراً ، في يوم عرفة سنة ٣٥٠هـ :

عيد ، بأية حال عدت ياعيد بما مضى !! أم لأمر فيك تجديد

أما الأحبة ، فالبيداء دونهم فليت دونك بيداً دونها بيـــد[1]

فالعيد من معالم الزمن (الوقت) ، يستحضره المتنبي مجسماً ، ليبثه عتابه وأحزانه القديمة ، التي تتطابق مع دلالة العيد السعيد ، وتتسع فجوة الدلالة المتطابقة ، بتجنيس

(١) معجز أحمد : ١٦٨/٤ .

التصريف لغة وتصويراً (عيد - بيد) ، فالمدى الزمني بينه وبين العيد ، وهو يوم واحد ، غدا مسافة مكانية موحشة قاحلة ، ولكنها متمناة ، فجاءت مكررة في صيغة الجمع (بيدا - بيد) ، لأن تجاوزها أو عدمه ممكن ، أما هذا الزمن العيد ، فهو يأتي رغما ، ويجوس ويرحل ؛ ليترك في قرارة النفس مرارة تتجدد عند كل مجيء .

ويتكرر في شعر المتنبي خطاب الزمان بلغة المكان ، وذلك في شامياته وقبل رحلته إلى مصر بحوالي سبع عشرة سنة . يقول في مدح طاهر بن الحسين العلوي :

وأحسب أني لو هويت فراقكم لفارقته ، والدهر أخبث صاحب

فياليت ما بيني وبين أحبتي من البعد ما بيني وبين المصائب[1]

فالبيت الأول يصور مخالفة الزمن البشري لإرادته ، والضمير في "لفارقته" يعود على "فراقكم" ،وفي البيت الثاني ، يتمنى لو أن بعد المسافة بينه وبين أحبته هو الذي بينه وبين المصائب التي تدهمه ، والمصائب قرينة زمن في ضمير الغيب القادم .

إن التوازن المفقود بين الزمان والمكان في شعر المتنبي ، وإقراره بارتقاء حركة الزمان على جمود المكان ووحشته ، وترفعه عن الانتساب إلى الزمان والمكان ، وخطاب الزمان بلغة المكان ، وتشكيل الزمان وفق صورة نفسية ، كل ذلك قد أوجد تصوراً جديراً بالرصد في فكر المتنبي ، يمثل حقيقة جديدة مبنية على بعد تأملي عميق ، هو الإنسان بين رحى الزمان والمكان ، والإنسان ليس دونهما ؛ بل فوقهما بسمو النفس الكريمة على الدهر ، وبترفعها عن مقتضيات الدنيا والدهر (المكان) . يقول في مدح الخصيبي القاضي :

ذا جود من ليس من دهر على ثقة وزهد من ليس من دنياه في وطن[2]

وتركيب البيت صورة لغوية عروضية ، ترسم منهجاً متوازناً ومحايداً في تصور الزمان والمكان ، فالممدوح (الإنسان) يجود لأنه لا يثق في الدهر ،؛ بل يثق في قوة عليا

(١) السابق : ٢/٤٣٢ .

(٢) السابق : ٢/٢٥٥ .

تدير الدهر ، ويزهد في مادة المكان لأنه الأرقى ، ينتسب إلى وطن روحي لا تحيطه مادة ، وتحاكي البنية النحوية البنية العروضية في البيت ، ليوحي بتناسق الإيقاع مع دفقاته الشعورية المطمئنة ؛ فالشطران تركيب نحوي واحد ، جملة اسمية أضيف إلى خبرها اسم موصول جملته منفية بليس أضمر اسمها ، وخبرها شبه جملة ، وجاء الزمان والمكان (من دهر - من دنياه) متعلقين بالضمير المحذوف ، فتناسق التركيب ، وتكراره مع تكرار بعض كلماته يعد إلحاحاً على معنى واضح يرسمه المتنبي في تصويره لممدوحه ، كما يتناسق هذا التركيب مع البناء العروضي للبيت ، والبيت على وزن البسيط ، تتفق تفعيلاته في الشطرين باستثناء التفعيلة الأولى المكتملة (مستفعلن) وخبنت في أول الشطر الثاني (متفعلن) ، ليحيلنا الخبن (حذف الثاني الساكن من (مستفعلن) إلى حذف المبتدأ (ذا) ، كما اتسقت نغمة الروي في الضرب (النون المكسورة في وطن) ، مع نغمة العروض (نون التنوين المكسورة في ثقة) ، فهذا التناسق محاكاة لتجارب نفس المتنبي مع تصوره لآلام الإنسان وحيرته بين الزمان والمكان ، وإن هذه الحيرة نستشفها من محاولة تفكيك النص لرصد بعض مراميه ، "وإن تجزئة النص من أجل دراسته ليست تجزئة يراد بها تحنيط هذه البقايا المجزأة ، لكن يراد بها أن نفهم عقلياً حركة الأجزاء والعلاقة فيما بينها في الجسم الحي الذي نحبه ، وهو النص"[(١)].

بين الحقيقة والاستعارة :

وإن كان التصور السابق يمثل حقيقة يسعى إلى تأكيدها المتنبي في شعره ، فإنه يسعى أيضاً إلى تجميلها بتصورات استعارية تعلي من شأن الإنسان على الزمان والمكان ، وتمكنه من إعادة تشكيلهما في فكره ، والتصورات الاستعارية تبني حقيقتنا الحاضرة ، ولها القوة على خلق حقيقة جديدة "[(٢)].

---

(١) الدكتور محمد حماسة عبداللطيف : النحو والدلالة .- القاهرة ، ١٩٨٣م ، ص١٦٥ .

(٢) جورج لايكوف ومارك جونسون : الاستعارات التي نحيا بها : ترجمة : عبدالحميد جحفة .- ط١ .- المغرب: دار توبقال للنشر ، ١٩٩٦م ، ص١٥٠ (بتصرف) .

ولما كان الآخر هو الطرف المعني في خطاب المتنبي الزمن، فإنه يقصد إلى خلخلة تصوراتنا السابقة عن الزمان والمكان ، من خلال تصوراته الاستعارية الجمالية عنهما، وقدرته على تشكيلهما، وذلك " حين نبدأ في إدراك تجاربنا عن طريق هذه الاستعارات .. وإذا دخلت استعارة جديدة في النسق التصويري الذي نؤسس عليه تصرفاتنا ، فإنها تغير هذا النسق التصويري ، كما تغير الإدراكات والتصرفات التي ينشئها هذا النسق"[١] .

من هذه الحقائق الاستعارية ، أن نفس الإنسان/المتنبي في صراعها مع الدهر ، إنما تواجه قوة غامضة مجردة ، قد تتجسم في فوارس يمتطون صهوة الخيل ، ولكنها قوة أعظم من قوة الدهر ؛ لأن الدهر جزء منها وهذه القوة يقربها إلينا المتنبي ، فينسبها إلى تبعات المكان (أطاعن خيلاً) ، والزمان المجرد (الدهر) ، وتصحبه في هذه المواجهة صفات عليا يستقيها من صفات خالق الكون سبحانه وتعالى (الوحدة - الصبر - السلامة - الثبات)، وأيضاً الهدف المتجدد (إلا وفي نفسها أمر) ، وكأنه ينظر إلى قوله تعالى : ﴿كل يوم هو في شأن﴾ [٢] ، وإن هذه الصفات أشجع من النفس ؛ لأنها قرينة القوة الأعلى ، فلا خوف من الموت أو الخوف ، رغم أنهما لا ينتسبان لزمان أو مكان ، فتلك الصفات أيضاً كالنفس فوق الزمان والمكان ، ليكون الإقدام كالسيل هو منهج المتنبي في الحياة ، كمن له نفسان أو قلبان أو عمران ، ولقد تمكن المتنبي من اكتشاف هذه الخبرة مبكراً ، فاستطاع أن يفهم الزمن ، أو حاول أن يفك رموز شفرته ، يقول في شامياته يمدح أبا أيوب الأنطاكي :

أطاعن خيلاً من فوارسها الدهر ... وحيداً ، وما قولي كذا ومعي الصبر
وأشجع مني كل يوم سلامتي ... وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر
تمرست بالآفات حتى تركتها ... تقول : أمات الموت ؟ أم ذعر الذعر؟
وأقدمت إقدام الأتي كأن لي ... سوى مهجتي أو كان لي عندها وتر[٣]

(١) الاستعارات التي نحيا بها : ١٥٠ .
(٢) سورة الرحمن ، الآية : ٢٩ .
(٣) معجز أحمد : ٢/ ٣٢٠ .

ومن هذه الحقائق الاستعارية ،تشكيل الزمن مجسداً في روضة أنف لم ترعها يد إنسان ؛ إجلالاً ونقاء وقدسية . يقول في مدح سيف الدولة يهنئه بعيد الفطر سنة ٣٤٢هـ :

ما الدهر عندك إلا روضة أنف يا من شمائله في دهره زهر

ما ينتهي لك في أيامه كرم فلا انتهى لك في أعوامه عمر

فإن حظك من تكرارها شرف وحظ غيرك منه الشيب والكبر (١)

فحينما يهبط الزمن المجرد (الوقت) ليتسق في مجسدات مكانية ، يكون روضاً عزيزاً ترعاه السماء ، ويترقى بصفات الممدوح على ذات المستوى الرفيع ، فهى مجسدة في زهر تلك الروضة الأنف ، وهو بذلك يضفي على الصورة ظلالاً من تراسل الحواس ، حيث تدرك تلك الشمائل بالشم كما تدرك بالرؤية واللمس والوجدان الذي ينساب في عناصر الطبيعة الجميلة ، ومن مدركات هذا الدهر الأيام والأعوام والعمر ، زمن يزين الممدوح بالشرف ، والزمن والشرف مجردان في تناسق مع شمائل الممدوح ، ويصيب الزمن الآخرين بالشيب والكبر لأنهم دون ذلك .

إن تلك الرؤية مع تكرارها في صور مختلفة ومتعددة ، تلح على بناء تصور للمدى الزمني والمسافة المكانية في شعر المتنبي ، إنهما صنوان يمضيان معاً ، يسلك الإنسان المكان كما يسلك الزمان ، وكلاهما يحوي السهل والوعر ، يقول في تعزية سيف الدولة بوفاة أخته الصغرى سنة ٣٤٤هـ :

قد بلوت الخطوب مراً وحلواً وسلكت الأيام حَزْنا وسهلا (٢)

وقتلت الزمان علما ، فما يغرب قولاً ولا يجدد فعلا

وتظل الصورة سجالا بين الإنسان والزمان والمكان ، وسيف الدولة هو قاهر الزمن ،

---

(١) السابق : ٣/٣٦٦ .

(٢) السابق : ٣/٤٨٩ .

لأنه نموذج الإنسان المرجو في ضمير المتنبي ، إنه أمير العرب ، يخضع له الزمان في صورة مكان له حدود وجهات ، يقول في مدحه :

إن كان قد ملك القلوب فإنه ملك الزمان بأرضه وسمائه
مضت الدهور ما أتين بمثله ولقد أتى فعجزن عن نظرائه
فأتيت من فوق الزمان وتحته متصلصلاً وأمامه ، و ورائه(١)

وقد يأتي المكان في صورة الزمان في شعر المتنبي ، ففي مدحه عضد الدولة يصف شعب بوان سنة ٣٥٤ ، يقول :

مغاني الشعب طيباً في المغاني بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان(٢)

فالشعب والمغاني مكانان ، تجردا في صورة الربيع والزمان ، وهو تجرد ارتقاء ، ولكنه في ضمير المتنبي ليس ارتقاء مكانة ، بل ارتقاء مكان إلى مرتبة الزمان ، والزمان متهم في شعر المتنبي ، فهذا التصوير ليس مدحاً ، ولكنه تقرير واقع بلغة محايدة وعقلية منطقية تتجاوز العاطفة والشعور ، وكأن المتنبي يقول : "طيب الشعب ونضارته مثل فصل الربيع" ، وأتبع ذلك بمعنى الاغتراب ، فالمتنبي / الفتى العربي/ الإنسان العربي ، غريب في هذا المكان وما يحيطه من زمن ، إنهما مرتع قرار ، والمتنبي العربي رحال مجاهد بالكلمة ، يجوب البلاد ويقطعها كما تقطع الأيام الآجال ، مهموم بعروبته وتأصيل فكرها بين الأمم التي تناوشها وتتكاثر عليها ؛ "بل أراد أن يعلم عضد الدولة ، أن هذه البلاد ليست مكانه الذي يرتاح إليه ، وليست بالأرض التي تحرص عليه أو يحرص عليها ، وأنه غريب عنهم ، وأن مدحه لهم ليس شيئاً ، وأنه عربي ليس بالأعجمي يميل إليهم أو يكون له شأن بينهم"(٣) ، ويبدو البعد النفسي جلياً في مقارنة وصف الشعب بوصف زمن سيف

(١) السابق : ٣/٣١٤ .
(٢) السابق : ٤/٣٣٧ .
(٣) المتنبي : ٣٨٤ .

الدولة السابق" ما الدهر عندك إلا روضة أنف" ، فالربيع زمن قصير مضى ويعود ، وهو غاية التشبيه في الصورة "الشعب بمنزلة الربيع" ،ينتقل فيها من المكان المحسوس إلى زمان مجرد تتماثل آياته في المكان ، أما في تصويره زمان سيف الدولة فقد هبط من عالمه المجرد المجهول إلى المكان الطاهر الآمن "الروضة الأنف" وكأنه يمتاح من صورة الجنة في القرآن الكريم ؛ ليمزج بين الزمان والمكان ، إيغالاً في إحساس غامر بالسعادة الملموسة ، واختار لهذه الصورة أسلوب الحصر والقصر "ما - إلا" ، وأتبعها بتجسيد الصفات المجردة في "زهر أنف" ، فلعل في هذه الحركة المضادة ما يرسم تصور المتنبي عن الزمان والمكان ، وأنهما دون الإنسان الفاضل ، وعضد الدولة وبلاده ليسا كذلك ، فالتشبيه يحاول الصعود إلى أعلى "بمنزلة" ، أما زمان سيف الدولة وصفاته الإنسانية ، فقد تمثل محسوساً في أجمل ما في الأرض / المكان ، وكأن المتنبي ينظر إلى قوله تعالى : ﴿فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾ [1] ، كما ينظر المتنبي إلى المعنى الكائن في وجود الإنسان الحقيقي بصفاته الكاملة التي تنتسب إلى خالقها ، وليست سعادة الإنسان بالأماكن الفاخرة فقط .

الزمان والخبرة الذاتية :

يتحدد مفهوم الزمن في شعر المتنبي ، وفق خبرة ذاتية معقدة ، كونتها بيئه وعقيدة ومعرفة وثقافة ؛ إلا أن المتنبي ، استطاع أن يستثمر العلاقات ، وهي السلوك المنبثق من تلك العناصر المكونة للخبرة ، فاستثمر العلاقات الشخصية لإفراز خبرته الذاتية ، واستثمر العلاقات الموضوعية المحركة للمجتمع ، لإفراز نوع من الاتفاق مع خاصة الناس ، فتوصل إلى عالم الخبرة الذاتية .

وقد استحالت هذه الخبرة إلى مرتكز نفسي ، يحرك خلاياه الفكرية ويتفاعل مع نسيجه الإنساني ، ويتحكم في رؤيته للناس وبواعث الخير والشر فيهم ، وربما يكون

(١) سورة الرعد ، الآية : ١٧ .

للعقيدة طيوف من التأثير في تشكيل تلك الخبرة ، ولكنه تأثير وَطَّن في نفسه ألا رهبة من غموض الزمن ، ولا خوف من حوادثه فهو مخلوق كالإنسان والمكان ، فالمتنبي يبني مستويات عميقة من الفكر في نفسه ، يستقيم عليها منهجه في فهم الزمن وتشكيله ، وإبداع العلاقة معه أو ضده . يقول المتنبي :

وما الخوف إلا ما تخوفه الفتى ولا الأمن إلا ما رآه الفتى أمناً [١]

وربما يكون هذا الشعور المتوطن خطوة ، يجتاز بها المتنبي موقف الشاعر الجاهلي من الزمن . فرآه الجاهلي "غامضاً ومخيفاً غموض الكون والحياة"[٢]، كما أبدع هذا الشعور موجات ملحمية يتهادى فيه الزمن قاتلاً ومقاتلاً صنديداً وغادراً مذموماً وآسراً يكبل بالقيود ، ومما يعمق عنصر الصراع في هذا التصور الملحمي ، اطلاع المتنبي على الأدب اليوناني واستفادته من فكر الملحمة والمأساة والملهاة ، وذلك من خلال اطلاعه على كتاب "فن الشعر" لأرسطو ، وقد كان الكتاب متداولاً بين سراة الثقافة بترجمة "اختصرها الكندي كما يقول ابن النديم في الفهرست"[٣] وتوفي الكندي سنة (٢٦٠هـ - ٨٧٣م)، أي قبل ميلاد المتنبي بثلاث وأربعين سنة ، "ويدل هذا التلخيص على أن كتاب "فن الشعر" لأرسطو كان معروفاً في محيط الثقافة العربية ، في بداية النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي"[٤] ، كما جالس المتنبي أبا نصر الفارابي الفيلسوف (ت ٣٣٩هـ) ، أكبر فلاسفة المسلمين ؛ وذلك في مجلس سيف الدولة الحمداني (ت ٣٥٦هـ) [٥] ، وتوفي أبو بكر الرازي الفيلسوف والطبيب سنة (٣١٣هـ) ببغداد[٦] ، والمتنبي صبي في العاشرة .

---

(١) معجز أحمد : ١٩٨/٣ .

(٢) الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام : ٤٢٠ .

(٣) كتاب أرسطو فن الشعر ؛ ترجمة وتقديم وتعليق : دكتور إبراهيم حمادة .- القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٩م ، ص٤٤ .

(٤) السابق : ٤٤ .

(٥) الزمن في الفكر الإسلامي : ٢٠ عن البداية والنهاية لابن كثير : ج٢٦٤/١١ .

(٦) الأعلام للزركلي : ١٣٠/٦ .

ومما لا شك فيه ، أن المتنبي أفاد من ثقافة عصره وما قبله ، وما وفد على تلك الثقافة من أخبار الأمم السابقة وثقافاتها ، وهذه الإفادة رجحان ضروري في ميزان المتنبي، حيث إن "الشعر العربي - في القرن الرابع - لم يعد قائماً على البداهة والارتجال وغيرها مما يدخل في التكوين العاطفي والوجداني وحسب ، بل دخل عليه بعد جديد ، هو الخلفية الثقافية للشاعر ، والتي تميزت - في ذلك القرن - بالاطلاع الواسع على التراث العقلاني الفلسفي عند اليونان ، وكان أن ظهرت محاولات تطمح إلى (عقلنة) الشعر ، وإعطائه نوعاً من النظرة الفلسفية ، كما هو ملاحظ عند أبي الطيب المتنبي (٣٠٣ : ٣٥٤هـ).."[١]، وقديماًقال القاضي الجرجاني :" "وإنما تجد له المعنى الذي لم يسبقه الشعراء إليه إذا دقق ، فخرج عن رسم الشعر إلى طريق الفلسفة" [٢] .

ولقد أشار المتنبي في شعره إلى وحدة زمنية ، تختزل المعرفة الإنسانية في نفس واحدة ، ومن الغريب أن هذا المعنى في قصيدة من أخريات قصائده سنة قتله سنة ٣٥٤هـ ، يقول في مدح أبي الفضل بن العميد بأرجان ، يصف مبادرته وناقته إلى الممدوح:

بدرت إليك يد الزمـان كأنهـا ... وجدته مشغول اليدين مفكـرا
من مبلغ الأعراب أنـي بعدهـا ... لاقيت رسطاليس والإسكنـدرا
ومللت نحر عشارها ، فأضافني ... من ينحر النضـار لمـن قـرى
وسمعت بطليموس دارس كتبـه ... متملكـا متبديـا متحضـرا
ولقيـت كـل الفاضلـين كأنمـا ... رد الإله نفوسهم والأعصرا[٣]

لقد سبقت الناقة إلى ابن العميد في غفلة من الزمن ، ليلاقي الأولين وتاريخهم في شخص الممدوح أرسطو وتلميذه الإسكندر وبطليموس، فيغنيه علمه عن طلب المال والطعام،

(١) الزمان في الفكر الإسلامي : ٢٣ ، ٢٤ .
(٢) الوساطة : ١٨٢ .
(٣) معجز أحمد : ٢٨٨/٤ .

فكأن ذلك العلم الذي وهبه ابن العميد هو الذهب الخالص ، علم ينساب حقيقة تشخص السابقين في اقتدار و وضوح وتحضر ، يلقى به الفاضلين الذين ينتمي إليهم ، ولا يصف المتنبي علم ابن العميد بهذا التشخيص الحي لروح علماء اليونان في الفلسفة والطب والسياسة، إلا إذا كان على علم بهؤلاء وتاريخهم، ويفطن المتنبي إلى ضرورة إبراز التلاحم الفكري بين العلماء رغم بعد أزمانهم ، لضرورة تأكيد فكرة الزمن الفلسفي ، الذي يمثل للمتنبي اتصالاً مباشراً بعلماء الفكر الإنساني ؛ ليكتب بينهم اسمه ويرسم بعدهم فنه الشعري .

ولقد برزت الخبرة الذاتية بالزمن في شعر المتنبي في سياقين ، يندفع إليهما المتنبي حينما يأنس إلى اتساق لغته ويقدر قوة تأثيره في الآخر ، كمن يتحين الزمن المناسب لإبلاغ رسالة خاصة ، هذان السياقان هما : الصراع مع الزمن ، وتجزئ الوعي به .

صراع ملحمي :

إن المتنبي يجابه الزمن وأحداثه وناسه ، وعدته العناد والسلامة والصبر والثبات ، وهذا المستوى في الصراع يقوم على المجابهة كرد فعل على أحداث الزمن ، كقوله فيما سبق:

أطاعن خيلاً من فوارسها الدهر وحيداً ، وما قولي كذا ومعي الصبر

وأشجع مني كل يـوم سلامتي وما ثبتت إلا وفي نفسهـا أمـر[1]

أما المستوى الملحمي الذي وطنه المتنبي ، فهو مباغتة الزمن بالصراع ، وتقوم اللغة بدور السلاح الذي يصارع به المتنبي الزمن . يقول في مدح الأمير ابن طغج أمير الرملة سنة ٣٣٥هـ ، وهي مدينة قرب بيت المقدس :

ومن عرف الأيام معرفتـي بها وبالنـاس روّى رمحـه غـير راحـم

فليس بمرحوم إذا ظفـروا بـه ولا في الردى الجاري عليهم بآثم[2]

يوجز المتنبي في هذين البيتين مستوى إدراكه للصراع ، بناء على خبرة ذاتية

(١) السابق : ٢/ ٣٢٠ .

(٢) السابق : ٢/٣٩٨ .

تغترف من فهمه لثقافة العقيدة ، وأن الإنسان أداة للموت في يد الزمن وربما القدر (ولا في الردى الجاري عليهم بآثم) ، فالمتنبي يطلق لنفسه العنان إلى قمة الغضب البشري المرير، مطرحاً مثالبيات القوانين والشرائع ، ناهضاً بأعراف الندية وحق الانتقام والمبادرة ، بغرض القوة والسيطرة في الاحتدام والصراع ، جامحاً بنفسه لا يلوي على شيئ .

وأعداء المتنبي في هذه القصيدة هم مدَّعو العلوية من غير بني هاشم :

وفارقت شر الأرض أهلا وتربة بها عَلَوي جده غير هاشم[1]

يحترز المتنبي من الإساءة إلى آل البيت ، أو اتهامه في عقيدته ، وهذا التحديد الحذر وضوح بناء في شخصية المتنبي ، لينفي مطلق العداوة لجنسه ، ويصنف الناس وفق خبرته بهم ، ويفسر عداوته للأيام والناس الذين تمنى أن يروي رمحه بدمائهم فهم علويون ادعاء ، وهم المبادرون بالعداوة ، وكلا الأمرين توجه ساقه هؤلاء إلى الزمن عبر سلبية الناس في طريق المتنبي ، مما نحا به إلى استفزاز همه واستشارة عزيمته ، واستعراض نديته البشرية المتاحة ، وهي في الحقيقة ندية نفسية تتحول فيها اللغة إلى سلاح وسلوك ، في قالب ملحمي تصوره خبرته الذاتية ، وتحمل هذه الندية نقيضها ، فهو إذن أسير الزمن وكسير أحداثه والمحاط بدواهيه ، يرقبه المتنبي بعين نافذة وذراعين مبتورتين ، فيلخص بالزمن موقفه من الناس والحياة ، "فهذه الملحمية في عرض الذات ، ليست إلا الوجه الآخر من كيان جريح ، كيان يغالب الألم بالتصبر ، ويعالج مرارة الإخفاق بالتعلل ، فهو يتخلص من مغبة اللوم بإلقائه على الأيام ، ومن رقة الحال بإسناد جريرتها إلى الليالي ، ومن إحباط الآمال بقلة النصير وضآلة العون ، وهو لا يتهيأ لطرح هذا الوجه الملحمي ، إلا بعد أن يمهد له باعتذار هو أشبه بالاعتراف" [2] ، يقول المتنبى في صباه :

لم الليالي التي أخنت على جدتي برقة الحال واعذرني ولا تلم

---

١) السابق : ٢/٤٠٤ .

(٢) شعر المتنبي : ٦١ .

أرى أناسا ، ومحصولي على غنم وذكر جود ، ومحصولي على الكلم[1]

فالخبرة بهؤلاء الناس صورتهم كالغنم في ضمير المتنبي ، خارجين عن نظام القيمة الإنسانية ، والعطاء المنوط بقيمة الإنسان عندهم محض كلم لا يغني ، هذا التصور يبيح له الموقف الملحمي السابق ؛ لأن المتنبي يضع الإنسان والموقف في عالم المفارقة ، أن يكون الإنسان المرجو أو لا يكون ، فيتجزأ الإنسان كما يتجزأ الإدراك والزمن المحيط بهما غير أن المتنبي في هذه الصورة لا ينماز كثيرا عمن جردهم من القيمة الإنسانية، فقد بدا راجيا غيره راضيا على كره على غير عادته ، وربما صغر سنه آنذاك حال بينه وبين اكتمال خبرته وحنكته الذاتية ، التي اتسعت مع اتساع وعيه ورؤيته ، ومن ثم اتساع أسلوبه الأدبي وتفرده، حتى أصبح الوعي والأسلوب مزيجاً أسلوبياً توحدت عناصره ، " والأسلوب الأدبي لمجرى الوعي أو (التداعي النفسي للأفكار) يجب أن ينظر إليه ضمن إطار اجتماعي وأيديولوجي أوسع ، وهذه الطريقة بالذات هي من جهة : تعبير صارخ عن تجزئة الزمن في وعي الإنسان ، ومن جهة أخرى : محاولة للتغلب على هذه التجزئة في إظهارها [2].

تجزيئ الزمن :

إن تجزيئ الزمن ، بل وتفتيته في وعي المتنبي ، قد أخذ مساراً عميقاً في قضية انتسابه العلوي وعلاقته بجدته ، ويبادره شعور التجزيئ والتفتيت في الخامسة والعشرين تقريباً ، حين أدرك أن القلق والترحال الدائمين مصيره الذي لا مفر منه ، فقد " منع من إظهار نسبه العلوي ، كما آثر أن يخرج عن الكوفة سنة ٣٢٦هـ تقريباً ، مفضلاً آلام الغربة على الهوان في الوطن" [3] ،فيقول في مدح المغيث بن علي بن بشر العجلي سنة ٣٢٧هـ :

أذاقني زمني بلوى شرقت بها لو ذاقها لبكى ، ما عاش وانتحبا

---

(١) معجز أحمد : ١٣٦/١ .

(٢) الزمن في الأدب : ١٢٨ .

(٣) المتنبي : ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

وإن عُمرت ، جعلت الحرب والدة والسمهري أخا ، والمشرفي أبـا[1]

إنه يرصد في الزمن ذلك المقاتل الذي لا ينكسر ولا يلين إزاء شفقة ، وعلى مبدأ ملحمية الصراع بين المتنبي والزمن ، يؤسس بناءً اجتماعيّاً مجزأً يقوم على احتمال زمني (وإن عمرت) ، هذا البناء يحاكي واقعه الاجتماعي ، وشعوره المرهف بالوحدة ، فالحرب والرمح والسيف أطراف قلقة موقوتة تفضي إلى الموت ، غدت أصولا للبقاء في تصور المتنبي (والدة ، أخاً ، أباً) مما يدفع إلى الظن أن خبرة المتنبي الذاتية عن الزمن وعلاقته به وبقيمته إنساناً وعن صفاته التي تنثال في كل مدح ، قد أصابها تهديد صريح مدمر لشخصه "وكلما ازداد بعثرة تركيب الخبرة الزمنية (الماضي) إلى شظايا في الحاضر لا معنى لها ، ازداد تهديد مكانة الذات المؤلمة من هذه الشظايا ، وازداد تطلب البحث عن افتداء هذه الصفات للزمن ، التي يمكن على أساسها إعادة بناء الوضع الإنساني (أو الحياة الفردية) ، وفقاً لنمط متماسك ومعقول وذي مغزى[2] .

ويمنع المتنبي من دخول الكوفة قبل وفاة جدته سنة ٣٣٥هـ ، بعد خروجه منها سنة ٣٢٥ أو أوائل ٣٢٦هـ" [3] ، تاركاً جدته تعاني الوحدة أيضاً حتى الموت ، فيسترجع ذلك الزمن من خلال يقينه بمعرفته ، ويتأسى بخبرته الذاتية المسبقة ؛ ليعيد توازنه أمام دواهي الزمن المتجددة ، ولكنها كما يقول الشيخ شاكر : "حسرة محبوسة في ألفاظ ، وكمد مكنون وراء كلمات" [4] . يقو المتنبي في رثاء جدته سنة ٣٣٥هـ :

عرفت الليالي قبل ما صنعت بنا فلما دهتني لم تزدني بها علما[5]

فيقابل بين طرفي زمنه الذاتي الماضي والحاضر ، ومبلغ خبرته بالماضي معرفة الزمن

---

(١) معجز أحمد : ٣٥٤/١ .

(٢) الزمن في الأدب : ١٢٨ .

(٣) المتنبي : ٢٤٢ .

(٤) السابق : ٢٨١ .

(٥) معجز أحمد : ٢٦٠/٢ .

والعلم بأمره ومساراته ، أما الحاضر فهو الفعل المتحقق الحدوث بالصنع والدهاية، فالحاضر الزمني أشد إيلاماً من خيالاته المعرفية الماضية ، مما يوحي بمدى التجزيئ والتفتيت في صميم خبرته ، رغم إقراره بأنه توازن بين الماضي والحاضر (عرفت ، لم تزدني) .

وقد تجنح هذه الخبرة إلى الاستلهام من تراث العقيدة ، ليتجاوز المتنبي المادة والروح والإحساس بهما ، كما يتجاوز آفاق الزمن إلى مرحلة العدم القبل والبعد ؛ فالإنسان راجع إلى العدم الأول كما بدأ ، وينقص كما زاد ، وكأن المتنبي ينظر إلى قوله تعالى : ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾ [1] ، يقول المتنبي في رثاء جدته :

إلى مثل ما كان الفتي مرجع الفتى يعود كما أبدى ، ويكري كما أرمى

إن المتنبي ينعي نفسه برحيل جدته ، التي تمثل له أصله الجسدي ، فيرتد بالزمن إلى فترة انعدامه وانعدام زمنه ، وتستثير الطاقة الصوتية مدى زمنياً مكرراً في حركة المد ، يحاكي درجة الإحساس القهري بالفقد المحزن [إلى - ما - الفتى - كما - أبدى - كما - أرمي] ، كما يحاكي حالة من استشراف الشعور بالامتداد المنقطع ، ليعمق دلالياً على مركز متحرك مرحلة تجزيئ الزمن والإحساس به وفق خبرته ، وفي ذات القصيدة ، يلح أيضاً على التأسي بفترة انعدام وجوده الإنساني في جدته في هذا العالم ، فيلقى مطمئناً بظهره ، مستنداً على جدار العقيدة ، ويمهد لذلك بالبكاء عليها خوفاً في حياتها ، لينقلنا إلى مرحلة من مراحل التطهير الملحمي ، كأن جدته على مسرح الحياة وهو المشاهد الوحيد، ثم يعرج بنا إلى عالم القدم حيث سجلت أعمال البشر في لوح القدر ، وثكلهما قد ذاقاه قبل نزولهما إلى الأرض ، يقول في رثاء جدته :

بكيت عليها خيفة في حياتها وذاق كلانا ثكل صاحبه قِدما

إن المتنبي ينحي تأثير الزمن في هذا الرثاء الصادق العميق ، لأنه يستلهم أطيافاً

(١) سورة الإنسان ، الآية : ١ .

من فكر العقيدة الراسخة التي تنظم مفهومه لحركة الزمن ، ويرثي نفسه رثاء جدته ، رغبة في التوحد معها في ضمير الغيب والعدم والمادة وفي مشهد الموت .

وقد ينحو المتنبي بخبرته الذاتية عن الزمن إلى اختزالها في الموت ؛ بل الموت الهادىء ضرب من القتل ، إمعاناً في تأسيس فكرة الصراع الملحمي بين الإنسان والزمن ، ثم الصراع الخفي بين الإنسان وأحبابه ، وتجزيئ هذه العلاقات وتفتيتها ، ليخلص المتنبي إلى صورة فردية لكل إنسان يجابه بها الزمن وحده ، فالزمان قاتل ، والنسل والنساء شرك يغري بالبقاء والانشغال عن تدابير الزمن ، يقول في رثاء عبدالله بن سيف الدولة سنة ٣٣٨هـ :

إذا ما تأملت الزمان وصرفه ... تيقنت أن الموت ضرب من القتل

هل الولد المحبوب إلا تعلة ؟ ... وهل خلوة الحسناء إلا أذى البعل؟[١]

فالمتنبي - كما يقول بلا شير - " قد وثب في البيت الأول إلى معنى فلسفي رائع ، وأكبر الظن أن المتنبي قد ظفر بهذا المعنى في بعض قراءاته الفلسفية"[٢] .

الخبرة الذاتية والنضوج :

وتبلغ خبرة المتنبي بالزمن مداها ، حينما يتجاوز شعور الصراع والتجزيئ ، ويتوحد مع مسار زمنه الشخصي ، ويحايد في نظرته لمسار زمن الآخرين ، فيتعمق المتنبي أمور نفسه وأمور الناس ، حين ينتهي به التعمق إلى تجاوز نفسه وتجاوز الناس ، وإذا هو يفكر في فلسفة الأخلاق أو فلسفة الدين " [٣] . يقول المتنبي بمصر سنة ٣٤٨هـ ، ولم ينشده كافوراً ولم يذكره فيه :

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا ... وعناهم من شأنه ما عنانا

---

(١) معجز أحمد : ٩٤/٣ .

(٢) شفرات النص : ٢١٦ .

(٣) مع المتنبي : ٣٢١ .

وتولوا بغصة كلهم منه وإن سر بعضهم أحيانا
ربما تحسن الصنيع لياليه ولكن تكدر الإحسانا
وكأنا لم يرض فينا بريب الدهر حتى أعانه من أعانا
كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء في القناة سنانا[1]

لقد بلغ المتنبي في هذا الشعر مرحلة كشف خاصية الزمن ، وبنى على هذا الكشف هدأة جديدة على شعره في مسار الزمن وخبرته به ، إنها هدأة الحكمة والتعقل وفق قانون الحياة ، ونضوج من أشرف بآماله وآلامه على اليأس ، فلا الآمال تحققت ، ولا الآلام جفت، ولا نفدت أيام العمر المجهول بآمالها الكبار وآلامها .

إن المتنبي ، رغم حزنه المتأمل العميق ، ينصف الزمن ؛ بل ينحاز إليه في صدق وموضوعية ، وينظر إلى علاقة الزمن بالإنسان نظرة نسبية عادلة ، ويبرئ الزمن من إرادة الشر المطلق والقصد الدائم للشر ، ففي كل بيت ثناء ورضا عن الزمن خفي أو واضح ، ويتضح ذلك لو قرأنا الأبيات قراءة من يخيط الشباك ، الشطر الأول ، فالشطر الثاني من البيت الثاني، ثم الشطر الأول من البيت الثالث، (صحب الناس قبلنا ذا الزمانا - وإن سر بعضهم أحياناً - ربما تحسن الصنيع لياليه - حتى أعانه من أعانا - كلما أنبت الزمان قناة).

فبداية ، يقرر المتنبي وفق خبرته ، أن علاقة الزمن بالإنسان علاقة مصاحبة ورفقة ، وتنسحب هذه العلاقة الحميمة على دلالات الأشطر المختارة آنفاً ، فمن الصحبة سرور البعض أحياناً ، والإحسان المحتمل ، وحاجة الدهر إلى من يعينه على الضرر ، وإنبات الزمان القناة الغفل من الشر ، وقد تكون "رمحاً أجوف ، أو عصا مستوية أو معوجة"[2] ، ولكن القناة بدون سنان قاتل ، كما أن الدهر بريبه محتمل ، إلا أن يعينه (من أعانا) بعض الناس ، فالزمان هنا ينفصل عن الناس ليصور المتنبي كليهما منفردين في صفات

(١) معجز أحمد : ١٢٣ .

(٢) المعجم الوسيط : ٢/٧٩٤ .

يجب أن تتلاقى ، كما تلاقت وتواءمت مع فكر المتنبي ، ليمزج الإنسان في زمنه وهو على معرفة به ، الزمن الظرف العَلَوي الذي يصحب الإنسان في تؤدة وسكينة من مولده إلى مماته ، فهو في منأى عن ازدراء المتنبي وتعسفه .

هذه القراءة الشبكية ، إن جاز التعبير ، لهذه الأشطر ، بعيدة عن المرمى الدلالي للدكتور طه حسين ، فقد رأى أن المتنبي في هذه الأبيات ، "يضع أساس التشاؤم المطلق واليأس الشامل ، والتشاؤم الذي لا موضع فيه للتفاؤل" [(١)] ، وإنما تنطبق رؤية الدكتور طه حسين على الأشطر الأخرى ، والتي تتلخص معانيها في (معاناة الإنسان من الزمن - والتولي بالغصة - وتكدير الإحسان - وعدم الرضا بريب الدهر - وتركيب الإنسان السنان القاتل أعلى القناة لتصير رمحاً) وهذا المعنى الأخير يبرئ المتنبي منه الزمن .

لقد جاء الزمن بهذا المفهوم المحايد ، من خلال تجسيمه طرفاً في الصورة ، متوازياً مع ديمومة الإنسان ، وليس الزمن خالق الإنسان وديمومتِه ، وإنما هو الطرف المراقب كصفحة السماء ، تصفو فتمنع أو تغيم فتسقي ، بما يحمل المعنى من تناقضات ، ولكنه التناقض المتوافق مع فهم المتنبي الإنسان لذاته وطبيعة زمنه وحكمة وجوده ، فيفضي هذه التناقض إلى الخضوع للزمن وجبروته ، والتأمل في صمته المتحرك أو حركته الصامتة .

وإذا كان التناقض سمة الطرف الأعلى وهو الزمن ، فإنه سمة الطرف الأدنى وهو الإنسان ، كأن صورة التناقض الزمني في علاقة الزمن بالإنسان بين المنع والعطاء والشر والخير، جاءت تمهيداً لإقرار التناقض في علاقة الإنسان بالإنسان ، وفي علاقة الإنسان بذاته ، فالأبيات الأولى طرفاها الزمن والإنسان ، والخمسة الأخرى طرفاها الإنسان ونفسه ومرادها ، الذي يحركها ويحفزها إلى التعادي والتفاني :

ومراد النفوس أصغر من أن تتعادى فيه وأن تتفانى

والبيت وما بعده ، حسب القراءة الشبكية التي أشرنا إليها ، امتداد للأشطر التي

(١) مع المتنبي : ٣٢١ .

تدين الإنسان لا الزمن ، فتحقيق الأنا هو الدافع الأوحد لتركيب السنان القاتل في القناة الغفل ، ومراد النفوس هو الدافع الحقير للتعادي والتفاني ، ثم يستدرك المتنبي ليميز بين المراد الأصغر والمراد الذي يلاقي الإنسان المنايا من أجله .

إذن .. فصورة الزمان في هذه الأبيات ، وقد قارب المتنبي الخمسين ، جاءت تمهيداً دلالياً مركزاً لإفراز علاقة متوازنة بين الإنسان ونفسه والآخر كما جاءت الصورة مستقلة ، على حين أن صورة الزمان في شامياته وعراقياته الأولى ، كانت تأتي بعد صور تمهد لها بالحركة والتجريد ، ولم تكن صورة الزمان مستقلة ، بل كانت تنسل من بين قضايا إنسانية ، أما وقد نضجت الخبرة ، فقد غدت فكرة الزمان والإحساس به في شعر المتنبي ، بمثابة العمق الثقافي والديني ، يتدفق هادئاً ليشكل رؤية المتنبي للقضايا الإنسانية الشائكة ، والمركوزة في خبرته الذاتية .

وثمة طيف من ضغينة للزمن ، يسري على استحياء بين الأبيات ، (وعناهم ما عنانا - وتولوا بغصة كلهم - ولكن تكدر الإحسانا) ، وقد جاء هذا الطيف انحساراً لبركان قد تمدد في شعره السابق ، لأن رؤيته للزمن كانت محصورة في الزمن البشري الذي استعلى عليه المتنبي، لكونه مع أفاضل الناس يمثلون النموذج الإنساني الراقي، وربما استأنس المتنبي حينما حمل هذه الضغينة والتي استشرت من قبل بالتعبير القرآني " في أيام نحسات"[1]، فيصور القرآن دلالة الزمن في شعور الإنسان حين تدهمه قوارع القدر .

والحقيقة .. أن أبيات الزمان السابقة ، تعد منعطفاً في فكر المتنبي ، فقد امتزج فيها الحزن الإنساني بتناقضات الزمان ونفس الإنسان التواقة للخلود في عمرها القصير ، وغدا الزمان منظومة موضوعية يرى المتنبي نفسه والآخر من خلالها ، وعلى العكس تماماً ، كان المتنبي في شعره الأول يرى الزمان من خلال الإنسان ، فيسقط عليه سلبيات الإنسان ونقائصه وتناقضاته ، فكان الزمان متهماً دائماً لأنه صورة الإنسان الجمعية ، أما وقد

(١) سورة فصلت : الآية : ١٦ .

نضجت تجربة المتنبي وصفت خبرته الذاتية ، فقد هدأ فكره المجابه للزمن وعقد معه صلحاً، ولكنه صلح على دخن ، في النفس منه شيئ فتثور النفس وتغضب ، ولا مسار للغضب إلا على القيد الأصم الذي يكبل به الزمن يد الإنسان ، إنه الإدراك الحقيقي للزمن في شعر المتنبي في آخريات شعره ونهايات عمره ، وربما استجمع ذلك الإدراك ، حينما مدح أبا الفضل بن العميد ، وقد ودعه المتنبي في طريقه إلى عضد الدولة سنة ٣٥٤هـ ، فالوداع آمن من رجل كريم ، يفجر في نفسه ذلك المشهد المخيف حينما هرب من مصر متخفياً ، ولكنه في النهاية غادر من لا يحب إلى من لا يعرف على اليقين ، ولكنه مضطر رغم أنفه ليضع الشعر موضعه ، وفي ضميره أماني العودة للعراق ، فبين هذا الوداع والاستقبال المجهول ، والشاعرية القلقة ، وأماني العودة للوطن ، وآلام رحلة الحياة ، وبداية الإحساس بالأمن في جوار ابن العميد العالم الناقد " الملقب بالجاحظ الثاني" [١] يقول المتنبي سنة ٣٥٤هـ :

وغيظٍ على الأيام كالنار في الحشا ولكنه غيظ الأسير على القيد[٢]

فالمتنبي يصور ثورة نفسه على الزمن كالبركان المكبوت ، ولكنها كثورة الأسير على قيده، ثم يصرح في القصيدة ذاتها بالذي اعتملت فيه أمانيه ومخاوفه، يقول المتنبي:

تفضلت الأيام بالجمع بيننا فلما حمدنا لم تدمنا على الحمد

وهو إقرار يفضي إلى الخضوع والاستسلام والطمأنينة لحركة الزمان العليا ، وموضع الإنسان من هذا الزمان .

(١) معجز أحمد : ٤/٢٧٥ .

(٢) السابق : ٤/٣٠٩ .